

الكتب والمكتبات فى العصور القديمة*

إعداد

أمل وجيه حمدى

معيدة بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب - جامعة القاهرة

القديمة هى «حضارة مغلقة لا آباء لها ولم تخلف أحداً على حد تعبير المؤلف نظراً لانعزال موقعها الجغرافى بسبب الجبال والصحراء مما ساعد على تطوير الفن والعمارة والدين والكتابة لذا فإن الكتاب المصرى والخط المصرى والإنتاج الفكرى المصرى قد نمت وتطورت جميعاً بعيداً عما سواها من دول الشرق الأدنى ومن هنا كان لمصر تأثيرها الحضارى على جميع الحضارات الأخرى التى احتكت بها سواء عن طريق التجارة أو عن طريق الغزو، ثم استطرد الكاتب فى تصوير الحياة المصرية على مجرى النيل ومدى تأثير هذا النيل على أسلوب حياة ومعيشة المصريين، بعد ذلك انتقل للحديث عن الإرهاصات الأولى للكتابة الهيروغليفية ومراحل تطورها المختلفة حيث يرى أن الكتابة لم تكن فقط حكراً على الكهنة باعتبارهم العالمين بأسرارها وإنما

فى مبادرة محمودة ورائدة قام الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة بتقديم أول كتاب ضمن سلسلة «مجموعة البليوجرافيا التاريخية» التى تعنى بتاريخ الكتاب وتطوره فى الزمان والمكان على وجه الإطلاق وذلك لرسم الصورة العامة لهذا التطور شأنها فى ذلك شأن أى دراسة تاريخية فى أى مجال آخر. وتتكون هذه السلسلة من ثلاث حلقات تغطى الكتب والمكتبات فى العصور القديمة، والعصور الوسطى بجناحيها (الشرق الأقصى والشرق المسلم، الغربى المسيحى والبيزنطى)، والعصور الحديثة.

وينتظم هذا الكتاب فى خمس كراسات تدور فى فلك خمس حضارات يبدأها المؤلف بالحضارة المصرية القديمة حيث تحدث عن الكتب والمكتبات فى مصر القديمة موضحاً أن الحضارة المصرية

* شعبان خليفة. الكتب والمكتبات فى العصور القديمة/ تأليف شعبان عبدالعزيز خليفة. - القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧. - ٣٤٣ص: إيض؛ ٢٤سم. - (مجموعة البليوجرافيا التاريخية).

هذا الإنتاج فى عهد المملكة الأولى كان يكتب على جدران المقابر وكان يتألف من قوائم الطعام والملابس التى يقترحها كهنة الملك للموتى، ثم تطور فى ظل الأسرة الخامسة إلى سرد للسيرة الذاتية للموتى وبعد قيام المملكة الحديثة فى مصر ضم الإنتاج الفكرى بجانب السير الذاتية مذكرات الوزراء وسجلاتهم وتسجيلاتهم التاريخية وذلك فى الأسرة العشرين. ولقد استعرض د. شعبان أبرز النماذج من الكتب المصرية القديمة مثل «كتاب الموتى» موضحاً الهدف منه والفصول التى يتكون منها، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الرسوم والإيضاحات فى الكتب المصرية وأشكالها المختلفة. أما عن الكتاب المصرى فقد أوضح المؤلف من خلال استعراض بعض النماذج من هؤلاء الكتاب أهمية ومكانة وظيفة الكتابة حيث كانت تتم عملية تعليم الكتابة عن طريق: الإملاء، أو المدرس، أو مدارس رسمية أو تابعة للبلاد. ثم يختتم المؤلف هذه الكراسة بحديث خاص عن المكتبة فى مصر القديمة وذلك من حيث التسميات المختلفة لها وأشهر فهارسها مركزاً حديثه على مكتبة رمسيس الأكبر أو رمسيس الثانى وذلك من حيث نشأتها وتسميتها وأهم الرسوم التى حوتها جدران هذه المكتبة العريقة وذلك فى شكل سرد تاريخى، أعقبه قائمة لأبرز أمناء المكتبات فى تلك الحقبة.

الكراسة الثانية:

وتناول فيها المؤلف الكتب والمكتبات فى حضارة العراق والشام القديم بدأها باستعراض تاريخى لأهم الأسر الحاكمة لتلك البلاد يدعم ذلك ثبوت تاريخى بالفترات الزمنية المختلفة لكل أسرة وأبرز حكامها وأهم العواصم التى اتخذت كمقر لحكم

كان العمال الذين يحفرون تلك النقوش على جدران المعابد بإمكانهم قراءتها وكتابتها أيضاً حتى ولو لم يعرفوا معناها. ثم يؤرخ الكاتب لبداية التاريخ المصرى فى نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد حيث بدأ هذا التاريخ مع حدث تمثل فى توحيد الوجهين (مصر السفلى ومصر العليا) على يد مينا (نارمر) ولقد وجد المؤلف اختلافاً واضحاً فيما بين المؤرخين على تقسيمات التاريخ المصرى القديم وذلك بسبب تقسيم التاريخ المصرى إلى ثلاث ممالك ووجود فجوات بين الأسر المختلفة داخل كل مملكة فهناك نحو مائتى سنة مفقودة فى كل فترة تقريباً ومن ثم أثر المؤلف أن يوضح - فى شكل جدولى - الممالك المختلفة وعدد الأسر داخل كل مملكة هذا بالإضافة إلى تحديد السنوات التى استغرقتها كل أسرة. بعد ذلك انتقل المؤلف للحديث عن مواد للكتابة فى مصر القديمة بادئاً بأهم وأعظم مادة للكتابة وهى نهر النيل العظيم لمصر ألا وهى البردى حيث كان الكتاب المصرى القديم عبارة عن لفافة بردى فظهرت أول لفافة مكتوبة فى عهد الملك نفرير كارى من الأسرة الخامسة (٢٤٠٠ ق. م)، كما أشار المؤلف إلى تحويل نبات البردى إلى ورق للكتابة، كذلك أشار إلى الأداة المستخدمة فى الكتابة على البردى موضحاً نوعيتها وكيفية تصنيعها والحجر المستخدم لها وأشكال الأختام التى كان يستخدمها المصريون قديماً، ومنها تحدث عن الهوامش فى الكتب المصرية القديمة وكيف أنها تعد عنصراً أساسياً فى تصميم تلك الكتب وأشار بعد ذلك إلى العناوين والسطور وأماكن حفظ لفافات البردى. بعد ذلك تناول المؤلف بالحديث الإنتاج الفكرى المصرى ومراحل تطوره عبر الممالك المختلفة مشيراً إلى أن

كل منها، ثم تناول كاتبنا مواد الكتابة مركزاً على أهم مادة عرفت في العراق والشام في تلك الفترة القديمة ألا وهي الألواح الطينية من حيث تعريفها، وطريقة تصنيعها وأشكالها ونطاق استخدامها هذا فضلاً عن الأدوات المستخدمة في الكتابة عليها.

يلى ذلك حديث عن الأختام وكيفية صنعها والألواح الخشبية المغطاة بالشمع التي استخدمها الآشوريين في الكتابة وصناعة الكتب وكذلك البردي الذي استخدمه الأكاديين. ثم تناول المؤلف الإنتاج العراقي موضحاً أن ٩٠٪ من الألواح الطينية عبارة عن تقارير اقتصادية وإدارية عن الزراعة في بلاد الرافدين وعقود قانونية وسجلات تجارية ومراسلات سياسية وحسابات فلكية وتقويم، وجانب من تلك الألواح عبارة عن نصوص سحر وكتب رياضية وخرائط جغرافية... إلخ، يليه استعراض سريع لمدى تواجد الإيضاحيات والرسوم في الكتاب العراقي وظهورها فيرى كاتبنا أن الكتاب العراقي لم يعرف الصور والرسوم إلا في شكل أختام حيث كانت تظهر الرسومات على الأختام الاسطوانية وبالتالي يمكن النظر إليها على أنها كتب مصورة مصغرة في حين ظهرت الصور والرسوم في مصر مبكراً عنها في العراق. ثم استفاض المؤلف في حديثه عن حرد المتن في الكتاب العراقي والذي انتشر كتقليد في مصر والعراق القديم، كما وجد كذلك في كتب البابليين الجدد، أما عن الكتابة فيرى المؤلف أنه من الخطأ القول بأن الكتابة كانت حكرًا على جماعة صغيرة من الكهنة - على الرغم من صعوبة نظام الكتابة المسمارية - إلا أنه كنت هناك مدرسة خاصة ملحقه بالقصر أو المعبد موجهة لخدمة الكتبة. وعن الكتاب العبري واليهود أفرد

الدكتور شعبان حديثاً مسهباً احتل معظم أجزاء الكراسة أوضح فيه البدايات الأولى للكتاب العبري كما أبرز أيضاً المراحل التاريخية المختلفة التي مر بها الكتاب العبري مدعماً ذلك بجدول يلخص للتاريخ العبري (اليهودي)، ويلى ذلك حديث عن الجنيزا وهي ظاهرة من ظواهر الشعائر الدينية عند اليهود ويعرفها المؤلف بأنها المكان الذي يعد لتجنيب أو دفن نسخ التوراة التي تتلف وتصبح غير صالحة للاعتماد عليها في إقامة الشعائر الدينية أو أى أوراق تحمل اسم الله سواء كانت كتب عبادة أو سجلات للمحاكم أعقب ذلك حديث عن مواد الكتابة عند اليهود والتي تمثلت في البردي، وشرائح الفخار المكسور حيث كانت تسمى بـ«الشقف» هذا علاوة على أدوات الكتابة لدى اليهود فقد وردت إشارات إلى استخدام الأقلام وغيرها من الأدوات مثل سكين الكاتب وسكين القلم بالإضافة إلى الأحبار المختلفة التي تنغمس فيها تلك الأقلام. بعد ذلك تناول الحديث عدداً من الموضوعات الأخرى الهامة مثل الكتب العبرية الأخرى غير التوراة، ومراحل تطور الكراس العبري، وحرد المتن في الكتاب العبري، ووصف المخطوطات العبرية من حيث الشكل والبنية. ثم يعود الكاتب مرة أخرى للحديث عن المكتبات في العراق القديم فأشار إلى أن الإنتاج الفكري الغزير الذي نشر في هذه الفترة قد ساعد بشكل مباشر على إنشاء العديد من المكتبات التي تجمع وتنظم وتيسر الاستفادة من هذا الإنتاج، ويرى الكاتب أن عمود حمورابي هو أول مركز معلومات في التاريخ وهو مصنوع من الطوب الأحمر المحروق وقد كتبت عليه النقوش التي قصد بها أن تكون بمثابة جريدة أو صحفية تسجل الانتصارات الحربية والقرارات الملكية وصلوات

الآلهة، بعدها تحدث عن عدد من المكتبات الآشورية والتي في مقدمتها مكتبة آشور بانيبال في نينوى، ومكتبة كالايش، ومكتبة نيور وذلك من حيث نشأتها وحجم ونوع مقتنياتها ونظم التصنيف والحفظ المتبعة في كل منها. ثم تناول بالحديث أمناء المكتبات في العراق القديم موضحاً السمات التي ينبغي أن يتسموا بها والمكانة الهامة التي حظيت بها هذه المهنة. وأخيراً اختتم مؤلفنا هذه الكراسة بالحديث عن مكتبات الشام القديم (فينيقيا) مثل مكتبة ماري، وإيبلا، وأوجاريت من حيث ظروف نشأتها وحجم مجموعاتها وطريقة تنظيم تلك المجموعات هذا بالإضافة إلى حديثه عن المكتبات الخاصة في الشام القديم والمكتبات العبرية القديمة.

ثم تأتي الكراسة الثالثة وقد خصصها المؤلف للكاتب والمكتبات اليونانية الرومانية في الحقبة الكلاسيكية وقد استعرض فيها الكتاب اليوناني ومواد الكتابة لدى اليونان والرومان والتي تمثلت في ألواح الخشب، ولفائف البردي الذي كان يستورد من مصر، وجلود الحيوانات (الرق) وذلك من حيث أشكالها المختلفة وطريقة الكتابة على كل مادة من هذه المواد وتعاقب استخدام كل منها. ثم جنع الكاتب للحديث عن حركة نشر الكتب اليونانية موضحاً الأركان الأساسية لهذا النشاط كما أشار إلى البدايات الأولى لتجارة الكتب عند اليونان ومدى توسعها مع إدراج قائمة بأشهر المؤلفين ذوي الكتب الأكثر رواجاً، ثم تحدث عن المكتبة الإغريقية في الحقبة الكلاسيكية مشيراً إلى أنه لم يكن هناك سوى نوع واحد من المكتبات هو المكتبات الخاصة، وقد استعرض الكاتب عدة نماذج

من تلك المكتبات. ثم أعقب ذلك حديث عن مكتبة بروجاموم بآسيا الصغرى والتي كانت تنافس مكتبة الإسكندرية في مصر، بعدها انتقل للحديث عن الحضارة الرومانية التي قامت على أنقاض الحضارة اليونانية ومع ذلك فقد تأثرت بالثقافة اليونانية حتى نشطت حركة النشر في روما واتسع نطاقها وفي هذا الصدد تعرض المؤلف لظاهرة هامة انتشرت في تلك الحقبة وهي قرصنة الكتب والأعمال الأدبية حيث لم تكن هناك حماية لحقوق المؤلفين في القانون الروماني لذا تعددت السرقات الأدبية. ثم استطرد في الحديث عن متاجر الكتب في أثينا وروما من حيث أماكنها وطبيعة الحركة داخل تلك المتاجر، بعد ذلك انتقل للحديث عن المكتبات الرومانية مستعرضاً أنواع تلك المكتبات موضحاً أبرز النماذج من كل نوع. واختتم المؤلف هذه الكراسة بحديث مستفيض عن تحول شكل الكتاب من اللقافة إلى الكراس في الحقبة الكلاسيكية، فبدأه باستعراض الصراع ما بين البردي والرق كمواد للكتابة ثم الألواح الخشبية كمادة للكتابة والتحول من الألواح الخشبية إلى استخدام كراسة الملاحظات الجلدية واستخدام شكل الكراس في الكتب المسيحية وغير المسيحية على حد سواء.

أما الكراسة الرابعة فخصصت لمكتبة الإسكندرية القديمة وقد تعرض فيها الكاتب إلى إرهاصات إنشائها على يد الإسكندر الأكبر المقدوني مدعماً ذلك بعرض جدولي يلخص الخطوط العامة للتاريخ اليوناني القديم، ولقد قدم المؤلف وصفاً دقيقاً للمكتبة من حيث التصميم والمقتنيات من اللقافات، والموضوعات التي تغطيها تلك اللقافات،

ومصادر التزويد المختلفة والتي كان من أبرزها الإيداع، كما عرض المؤلف أسماء أمناء مكتبة الإسكندرية أبرزهم كاليماخوس صاحب أشهر فهرس لتلك المكتبة والذي يعد بمثابة أول بيلوجرافية عالمية في التاريخ. ثم أوضح الكاتب طريقة تصنيف اللقافات داخل المكتبة والخدمات التي كانت تقدمها المكتبة. بعدها تعرض للمصير الذي آلت إليه مكتبة الأسكندرية وهو الحريق سواء عمدياً أو غير عمدي كما فند المؤلف الروايات المختلفة حول قصة احتراق المكتبة معلقاً على كل منها ثم أبرز د. شعبان الرواية التي نسبت إلى العرب المسلمين حول حرق مكتبة الأسكندرية ففند أدلتها

وأبدى رأيه فيها.

وأخر كراسة في هذا الكتاب وهي الكراسة الخامسة فاشتملت على نماذج مصورة من اللوحات والصور التوضيحية لبعض ما ورد ذكره في ثنايا نص الكتاب مثل الألواح الطينية، ولفائف البردي، وأقلام البوص... إلخ وقد بلغ عددها ٣٥ لوحة.

بقي أن نشير إلى أن هذا الكتاب يأتي في وقت قلت فيه الكتابات حول هذا الموضوع وبالتالي نجد المكتبة العربية في حاجة ماسة لهذه الكتابات. وعلى الرغم من انتماء الكتاب لمجال المكتبات إلا أن تخصصات أخرى يمكن أن تفيد منه كالتاريخ، والتراجم، والآثار.

